الغربة في أدب مي زيادة

رقية شروانة
المدرسة العليا للأساتذة ❖ قسنطينة ❖ الجزائر

ملخص

تشكل الغربة هاجسا مركزيا في أدب مي زيادة، فقد تضافرت مجموعة معتبرة من العوامل في صياغة هذا التشكيل الذي ترك بصماته الواضحة في منعطفات إبداعها، وفعلا تعد حياتها وإنتاجها ميدانا خصبا لاكتشاف دور وأهمية الجانب النفسي في توجيه الأديب، وكيف يلقي هذا الجانب المتعلق بالنفس الإنسانية في إحساسها ومعاناتها بظلاله على التصورات والمواقف الأدبية.

وتأتي هذه المقاربة لمتابعة ورصد الإحساس بالغربة في أدب مي زيادة عبر مناقشة الجوانب المتعلقة بالغربة المكانية، والغربة النفسية والغربة الفكرية من خلال بعض النماذج التي كانت ناطقا إبداعيا على هذه التجربة النسائية الرائدة في الأدب العربي الحديث.

Abstract

Alienation in the literature of Mai Ziada*. Alienation constitutes a central obsession in Mai Ziada's literature. A group of factors has contributed in the formulation of this configuration that left a clear mark in her creativity footprints. Truly, her life and her productions constitute a fertile field for the discovery of the role and importance of the psychological aspect that might guide the writer, and how this aspect of the human self's sensitivity and suffering casts its shadows on the literary perceptions and attitudes.*

This approach aims to follow up and monitor the sense of alienation in the literature of Mai Ziada through the discussion of aspects related to spatial, psychological and intellectual alienation through some models that were indicators of this pioneering female experience in modern Arabic literature

Key words: *Alienation, spatial, psychological, intellectual, Arabic Literature.*

الغربة بين الواقع والإبداع:

يأتي الإحساس بالغربة نتيجة لتجربة حياتية مريرة أو لصعوبة جمة في التأقلم مع المنظومة الاجتماعية والدينية ومع الأعراف والتقاليد، وتكون استجابة لتمرد الذات في صدامها مع الآخر الفردي أو المجتمعي.

استخدمت هذه الكلمة في سياقات أدبية واجتماعية مختلفة كحامل جمالي وفائض قيمة إبداعي "فالغربة عاطفة تستولي على المرء وبخاصة على الفنانين فيعيشون في قلق وكآبة لشعورهم بالبعد عما يهوون، أو يرغبون فيه، وقد تبرز هذه العاطفة في شكلين اثنين: أحدهما في حالة الابتعاد عن ملاعب الفتوة، وديار الأحبة، فيعبر الفنان عن مشاعره بصور، وأخيلة، ومعان تختلف جودة وعمقا باختلاف الشخصية المبتكرة. والثاني في حالة الشعور بأن العالم كله هو سجن أقحم فيه الفنان مرغما، فكبله بقيوده، وغمره بشروره وآلامه، فهو يحس بأنه غريب بين مواطنيه وأهله، وهو أبدا تائق إلى عالم خير من هذا، مؤمن بوجوده وقد شاع هذا النوع من الغربة في آثار الرومانسيين، وبلغ أوضح ملامحه في أشعار المتصوفة وكل من سار على دربهم"[1].

وقد جاء في قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: "أن الشعور بالغربة أو الوحشة Alienation هو شعور الإنسان بأنه غريب عن بيئته ومحيطه، أما الشعور بالوحدة Sentiment de Solitude هو شعور الإنسان بأنه وحيد في ميوله وتفكيره ضمن المجتمع الذي يعيش فيه"[2].

فالمعاني السابقة التي وردت في معنى الغربة وفي إيحاءاتها ودلالاتها تحمل في ثناياها معنى البعد عن الواقع الاجتماعي، والحزن، والتشاؤم، والكآبة، والتلاشي والهشاشة.

إيقاع الغربة عند مي زيادة:

يتجسد في أدب مي زيادة الإحساس بالغربة ويتردد إيقاعها بشكل مكثف ومتميز نظرا لعدة عوامل: أهمها الغربة عن الوطن وشعورها المفرط بالوحدة القاسية رغم كثرة المعجبين بجمالها وأدبها يخطبون ودها ويتمنون رضاها، ولكن على الصعيد الشخصي لم

تحقق ما كانت تصبوا إليه من حب واستقرار وسعادة وخسرت كثيرا من الرهانات وظلت صفحة متكتمة عصية عن الفهم والإدراك. لقد اكتوت "مي زيادة" بنار الغربة، واحترق فؤادها وتساءلت مرارا "لماذا أكون، دون سواي، تلك التي لا وطن لها"[3].

أولا: الغربة المكانية:

أثر الانفصال المبكر لمي زيادة - عن قريتها الناصرة ثم وطنها لبنان- في تكوينها النفسي وانعكس بالتالي على إبداعها وعلى استقرارها وارتبط ذلك بالإشادة والتغني بالوطن أينما حلت، والاستيقاظ المتكرر لحلم العودة إليه، وظلت تراودها فكرة الحنين والشوق إليه، فقد حاولت أن ترتد إلى الماضي بصوره المشرقة الزاهية المضيئة، لقد فارقت الأرض التي ولدت فيها وترعرعت بين أحضانها، وعاشت حائرة في انتمائها، حيث تقول: "ولدت في بلد، وأبي من بلد، وسكني في بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلأي هذه البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع؟"[4].

فـ "مي" زيادة " تحن إلى وطنها الذي فارقته، ولم تنس فضله عليها وذكرياتها الطيبة التي عاشتها بهذا الوطن الحبيب، وكانت سلمى صائغ (1889-1953)كامرأة أشد تأثرا بما قالته "مي" عن وطنها. فردت عليها: "وطنك يا "مي" هو هذا الجبل الصغير الذي كان قبل أن تتكون كلمة الوطنية في عقول الناس، هنا وطنك، لبنان الوجيع تغضب الليالي عليه فتحشره في كل مشكلة من مشاكل الشرق ثم تقتطع سهوله ثم تميته تجويعا وشنقا"[5].

وهكذا أخذ الشعور الوطني يتكثف حضوره "ويتجاذب "ميا" صوب لبنان حينا ويشدها إلى الأرض المصرية التي شبت فيها حينا آخر، وقد غدا هذان الوطنان لمي جناحان تحلق بهما في قلمها ومواهبها"[6].

ظلت "مي زيادة"، فتاة شرقية، لبنانية العين، مصرية اللهجة، عربية اللسان والروح[7]، تهتف بلبنانها أينما حلّت فحملت همومه وهي بعيدة عنه، و تغنت به دائما وتستمر "مي" متسائلة عن وطنها."عندما ذاعت أسماء الوطنيات، كتبت اسم وطني

ووضعت عليه شفتي أقبله، وأحصيت آلامه مفاخرة بأن لي كذوي الأوطان وطنا، ثم جاء دور الشرح والتفصيل فألهمت بالمشاكل التي لا تحل ، و حنيت جبهتي و أنشأت أفكر؛ وما لبث أن انقلب التفكر في شعورا، فشعرت بانسحاق عميق يُذلني. لأني، دون سواي، تلك التي لا وطن لها"[8].

أما مقالها "أين وطني؟"، فهو تعبير عاطفي عن خبايا الذات وعن نفس حائزة، ممزقة بين الطوائف بمختلف مشاربها والمذاهب المتعادية والأوطان المفتقرة إلى مقومات الوطنية رافضة للواقع الكائن وساعية لواقع ممكن. "مي" لا تتكلم هنا باسمها فقط بل تشير إلى الفوضى السياسية والمذهبية والفكرية التي كان ولا يزال يتخبط فيها الشرق العربي بأسره تحن إلى وطن تستطيع الإيمان به والاطمئنان إليه، سواء كان هذا الوطن مصر أم لبنان أم أي قطر عربي آخر.

لقد استوحت هذا المقال من خلال رصد وتتبع تفاصيل مؤتمرات الصلح التي جعلت الدول القوية تتلاعب بمقدرات الدول الصغيرة مثل أحجار الشطرنج، فتقدم وتؤخر، تطرح وتقسم تميت وتحيي، هازئة بحاجات الشعوب وأمانيها، غير عابئة سوى بمصالحها الأنانية.

ويشتد بها الحنين إلى وطنها فتقول: "أحب عطور تربة الجدود ورائحة الأرض التي دغدغها المحراث منذ حين. أحب الحصى و الأعشاب، وأحب الأشجار ذات الظل، وأحب الطرق الوعرة المتوارية، ثقفني أبناء وطني، وأدبني أبناء الأوطان الأخرى. وأسعدني أبناء وطني وأسعدني الغرباء أيضا، ولا ميزة لأبناء وطني في أنهم أوسعوني إيلاما فقد نالني من الغرباء أذى كثير: فبأي الأقيسة أقيس أبناء الوطن، و لماذا أكون أنا وحدي تلك التي لا تدري أين وطنها؟

غريبة الدار منذ النيل
تذكرة من وامق من ربى لبنان مغترب
بتنا بديلين و الدنيا تبدلنا
فيا لنا من شريكي موطن عجب

كلاهما نار في دار صاحبه
وداره في الهوى موصولة السبب"[9].

لقد حركت رحلة عباس محمود العقاد (1889-1964) إلى لبنان في نفسيتها الغربة التي كانت تستشعرها و هي بعيدة عن لبنانها متسائلة على الدوام "أين وطني؟" فكاتبته وضمنت رسالتها مقتطفات من مقالها "أين وطني؟"، وهي في الواقع مقالة حزينة يشعر القارئ أن صاحبتها دمرت نفسيا ومعنويا وفكريا، وحينما تلقى العقاد رسالتها عرف أنها تعاني ضيقا نفسيا شديدا، فرد عليها برسالة يقول فيها: "عجبت حين قرأت كلماتك "أين وطني؟" التي أرفقتها برسالتك، وقد ذكرتك أنك "وحدك في الدنيا" مع أنك "أنت هي الدنيا" بما فيها من نور ونار ونجوم وأزهار، وجوهر ونضار، ونشوة ومتاع:

ماذا في الدنيا - لعمري، أريد
أنت هي الدنيا، فهل من مزيد؟[10].

وقد كاتبت الأستاذ جبر ضومط (1858-1935)، معربة له عن شوقها إلى لبنان واحتياجها إليه: "ما أعظم شوقي إلى وطني وما أشد احتياجي إلى جمال مناظره وسكينة أحراجه!"[11]. وفي مكاتبة ثانية أرسلت إليه وهاجس لبنان يسكنها قائلة: "لا أدري ماذا نحن فاعلون في هذا الصيف. يا قمم لبناني؛ ما أسعد الضاربين في ربوعك، المتفيئين ظلالك، الموقين أحلامهم على تدفق مياهك! "[12].

ونجدها في موطن آخر تمزج الغربة المكانية بالاغتراب النفسي، و منشأ ذلك ما يختلج في خلدها من لواعج الشوق والحنين إلى أرضها الطيبة. "تحيتي الأخيرة إلى لبنان، لبنان! يجب أن أنحني لهذه الكلمة المحبوبة. لبنان ! هي كلمة واحدة، هي لفظة صغيرة، ولكن كل الحب وكل الرجاء فيها لأنها اسم الوطن الغالي. لبنان الأمواج الزرقاء الطرية تلثم قدمه، والثلوج البيضاء الطاهرة تكلل جبهته! في صدره قبور الجدود والأحباب، فليحي لبنان، وليحي الشرق! "[13].

وتحتوي مضامين الغربة المكانية في كتابات "مي زيادة " على خاصية بارزة ألا وهي الحلم بالعودة إلى الوطن، وإلى ذكرياتها البريئة، لم تنس لحظة أنها هاجرت من الوطن رفقة

عائلتها مرغمة، فالحنين دائم نحو وطنها. " أذاكرون أنتم حركات السفن في مرافئ سوريا، وجمال الثغور المنثورة على شفة البحر كالشامات البيضاء؟ أذاكرون أنتم أرواح الفل والنعناع والورد والزعتر والليمون والياسمين، آتية تودع النازحين، حاملة طي أنفاسها صدى تغريد الشحارير والبلابل؟ أذاكرون أنتم لبنان القائم على الشط كهيكل منصوب بين الأرض والسماء..."[14].

إنها تتغنى بكل جميل في سوريا، إنها تشفي من خلال هذا التغني ظمأ نفسها إلى بلدها، إنها بتعبير آخر تشوق إلى الجدران، وتعلق بالأمكنة والأزمنة بتذكاراته وجهوده وأحزانه ؟ إنها تحلم بالعودة، ولم تتيسر لها: "سأعود إلى موطني المصري العزيز وهذه الساعة حية في. حتى إذا اهتاجني اسم لبنان فذكرت جمال السحب فيه عند الغروب، وجلال الجبال في زرقة الشفق وروعة البحر تحت الظلام، حتى إذا اهتاجني ذلك الحنين الوجيع إليه رأيتني بينكم، وطني يحتاج إليّ احتياجه إلى كل فرد من أبنائه وبناته. وطني يحتاج إلي وعيون إخواني ترعاني أتريد أن أبعث حبي لأبناء وطني لهيبا، أريد أن أحيا رغم الجراح والآلام لأكون في حياة وطني الناهض حياة "[15].

ولا تغادر مخيلتها صورة الوطن وإن كانت تستمتع بساعة السفر فلا يمنع ذلك أنها تعاني لوعة الفراق ومرارته. "عذبة ساعة السفر بما فيها من المرارة بنت الفراق و الوداع. ولكم اعتليت سطوح السفن وهي على وشك الرحيل، انطلقت من نفسي صلاة حارة: يا مصر حنّي علينا بالرجوع إليك! وإذا كنت مودعة سوريا ناجيت الوطن القديم قائلة: " إلى الملتقى يا سوريا الحبيبة الجميلة!"[16].

ثانيا: الغربة النفسية:

يكمن الفرق بين الغربة المكانية والغربة النفسية في كون الأولى مرتبطة بالمكان أي بالبعد عن الوطن فهي غربة مادية محضة في حين ترتبط الثانية بالروح، النفس التائهة، الحائرة، فعندما تفشل هذه الأخيرة في تحقيق توازنها وتعجز عن التكيف مع المجتمع، تشعر بالغربة المعنوية إزاء هذا الإخفاق .

هذا الفشل مع الآخر، والإخفاق في التكيف الاجتماعي يتجلى بصورة أوضح وأبرز في محاضرتها "غاية الحياة" إذ تبعث من خلالها تساؤلاتها وحيرتها " أهي إرهاف ملكاتي الذهنية والنفسية إرهافا يرفعني فوق أقراني ويجعلني موضوع إعجابهم ؟ وأين أنا الآن من ضالتي المنشودة؟ ماذا أكسبني جهاد الأعوام الغابرات، وإلى أين أوصلني ذلك الجهاد الطويل؟ ماذا جنيت من الكد والتجلد والرجاء، وبعد دموع أرسلتها وأخرى كتمتها؟"(17).

وقد فتكت الغربة النفسية بـ"مي زيادة" و هي في سنينها الأولى، ونعثر على ذلك في مذكراتها التي دونتها في طفولتها فقد بدأت تعليمها في مدرسة داخلية بعيدة عن أهلها وكان ذلك يؤلمها كلما حلت مناسبة وهذا ما جاء على لسان عائدة - التي هي مي نفسها - : " وأخذت عائدة تكتب، ولا سيما وأن عيد الميلاد قد دنا وأخذت أيام العام الأخيرة تسرع نحو هوة العدم. كانت تكتئب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يغادرن الدير ليصرفن الأسبوع بين أهلهن المقيمين في المدينة أو في ضواحيها . وعائدة من بلدة بعيدة كل البعد، وستقضي هذه الأيام وحدها بين أولئك النسوة "(18).

وهنا تبدو وحدة "مي" وانسياقها نحو العزلة، وفي هذا الصدد يحدثنا عباس محمود العقاد: "قد كنت - كلما ازددت معرفة بـ "مي" وبحياتها في ندوتها و في بيتها بحنان هؤلاء الأفاضل الأبوين نحوها، فإنها – ولا ريب- كانوا يقصدون التسرية عنها، ويذكرون من بواكير صباها أن فرط التزمت في طويتها يجاوز حده، المأمون، وإنما يوشك أن تعاني كثيرا من العزلة النفسية التي جنت عليها في أخريات أيامها، وأنها تغالب شجنا كمينا لانطوائها الشديد على ذاتها، يخيل إلي أنه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها الدينية"(19).

ويأتي موقف "العزلة" (Isolation) هذا نتيجة لعدم الاندماج الروحي أو الفكري في المجتمع، كان يجد الإنسان نفسه - شأن مي زيادة - وسط أناس أسرى أدواتهم التقليدية لا ينسجمون معه فكريا فيغترب عنهم، أو روحيا فيعتزلهم.

و يتحكم في هذه المجال الدلالي لكلمة الغربة اعتزال الواقع الذي يعيشه المبدع المغترب مما يوقظ في نفسيته حالة من الفوضى الداخلية والقلق واللا أمان، وفي تقديري أن عزلة "مي زيادة" تتحكم فيها جملة من الأسباب منها: حساسيتها المفرطة لأدق التفاصيل، ميلها الفطري إلى العزلة، المظاهر الاجتماعية المزيفة، وقد حولت هذه الأسباب مجتمعة فيما يبدو عزلة "مي" إلى سلوك مرضي خاص لازمها طول حياتها، والذي يعرف في علم النفس باسم "العصاب القهري الوسواسي" بحيث يعتزل الإنسان - في هذه الحالة - الآخرين.

وقد كان قلق "مي زيادة" نابعا من ذات متألمة متوجعة، مثقلة بالهموم والأحزان والفراغ المخيف، تحاور العالم الذي يحيط بها بطريقة مغايرة "فالقلق يكاد يكون مادة مشتركة في كافة أعراض العصاب تقريبا، إذ توجد علاقة بين الاستجابة العادية بالخوف و أي موقف خطر خارجي، كما يوجد رد فعل بالقلق لأي خطر داخلي أو نفسي..."[20].

إن هؤلاء الغرباء المعتزلين، إنما يعبرون عن أحاسيسهم الغامضة وضيقهم بوطأة الواقع المر، ذلك لأنهم رسموا لأنفسهم معايير لا توافق منطق المجتمع ونماذجه المسبقة، فيعتزلون الآخرين بعد فشلهم في تحقيق ما رسموه لأنفسهم، غير أن هذه العزلة بمكوناتها ولوازمها الخصوصية "قد تكون في حقيقة الأمر التزاما صارما، ومن ثم لا تكون عزلة الأديب مظهر السلبية بقدر ما هي تعبير صريح عن موقفه، ورفض جهير معلن لأوضاع لا يرضى عنها، أو لا يستطيع أن يسايرها"[21].

وأغلب الظن أن من عوامل الغربة النفسية عند "مي" هو أنها لم تتزوج، فشعرت بالوحدة، وغلبها الحزن، فاعتزلت الناس، وتعرضت لأنكى أشكال التهميش، وتغلبت عليها "الوساوس" فمرضت سنة 1936 وظلت في اضطراب عقلي نحو عامين[22]، وهكذا ظلت في وحدتها قابعة تعاني تجربة قاسية مريرة، فلا حبيب، ولا زوج ولا صديق[23]، بالإضافة إلى ذلك أنها كانت وحيدة والديها مع فشلها في الاندماج بالحياة وبمن حولها، مما زاد في نفسها الشعور بالمرارة، وهذه المعاناة أشد وأعنف مما يعانيها الرجل، ذلك أن المرأة لا تملك أن تعيش بلا مجتمع فلا غنى لها على أن تتكيف أو تكيف مجتمعها، وكانت

أزمة "مي" وليدة واقع مرير، إذ ظهرت في بداية احتكاك العقلية الشرقية بالعقلية الغربية، ولذا لم تستطع التوفيق بين العقليتين، ولا أن توفق في تركيز حياتها الشخصية على أساس من الثقافة التي تنامى عقلها وقلبها وحسها في وسطها[24].

وبالرغم من مرارة التجربة التي عاشتها "مي زيادة " لم تنصرف يوما عن عوالم الكتابة، وفي هذا حاول الفرويديون التسلل إلى مساحات الوجود الإنساني الأكثر حساسية محاولين ضبط العلاقة المتلازمة بين الفن والمرض العصبي[25]. فالحرمان والفشل قد يدفعان بالمبدع إلى تفعيل طاقته في الخلق والابتكار. "وفي موقف الصد والحرمان يشعر الفرد باضطراب وتوتر، وعندما يكون الصد والصراع عنيفا يحتدم الشعور بالاضطراب والتوتر ويبلغ حد القلق وعندما يصاب المبدع بهذا النوع من القلق فإنه يتجه نحو الإبداع، فيجد فيه خير متنفس لغربته وآلامه. "ومن أجل هذا يمكن أن يتجه الموهوبون إلى الفن بسبب الجنون أو بسبب إحساسهم بقرب وقوع الجنون. ولكنهم يحققون عظمتهم رغم الجنون وليس بسببه"[26].

لم يكن قلق "مي زيادة " بين رفيقاتها أو في وحدتها ناتجا من مظلمة وقعت عليها، إنما كان اضطرابها من رهافة حسها وفرط ذكائها وحدة وعيها، وذكاء المرء كما قيل محسوب عليه، وقد يكون هذا الحساب عسيرا. وقد "عاش العقاد يذكر لمعارفه وتلاميذه كيف تمكن بلاء الاضطهاد من تلك النفس الذكية"[27].

إن الغربة "Aliénation" من طبيعة الإنسان وهى تتفاوت من إنسان لآخر، ومن مجتمع لآخر، ذلك لأنها تتلون بطبيعة صاحبها، والغربة ظاهرة قديمة رافقت المجتمعات منذ بدء الخليقة، ويزيدها تعقيدا ما لحق بالقرن العشرين من حروب ودمار واستلاب واستيطان، ونحن نستخدم الغربة في هذا البحث للدلالة على النفي الاضطراري، والابتعاد عن الأهل والأبناء، والغياب عن الوطن جراء الوحشة والوحدة، والتوق إلى العودة مهما كانت بواعث الغربة، وقد نستعملها للدلالة على عدم التلاؤم بين أرواح المبدعين وأفكارهم وبين الواقع. ومن هنا فالاغتراب حالة مستمرة تلازم الإنسان سواء كان في وطنه وبين أهله أو في حالة الهجرة إلى أماكن أخرى.

وقد عبّرت "مي زيادة" عن الغربة النفسية أحسن تعبير، جسدتها في أكثر من مقال لها؛ وخير دليل على ذلك مقالها "أنت أيها الغريب" الذي اختلفوا في تفسيره وإلى من وجهته؛ هل المعني جبران خليل جبران (1883-1931) أم مصطفى صادق الرافعي(1880-1937) ؟.

إنها نموذج يكشف عن تلك الغربة النفسية التي تكابدها "مي زيادة" فيخيل إليها أنها سجينة والغريب. "أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة، وكما يعرف السجناء بأرقامهم يعرف كل حي باسمه، أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوؤني. لأني إنما أقلدهم لأريك وجها مني جديد. وأنت، أتجاريهم بمثل قصدي أم الهزء والاستخفاف فيك سجية ؟"[28].

لقد كاتبت جبران خليل جبران عام 1921 قائلة: "جبران، أريد أن تساندني وتحميني، وتبعد عني الأذى ليس بالروح فقط، بل بالجسد أيضا، أنت الغريب الذي كنت لي بداهة وعلى الرغم منك أما وأخا ورفيقا وصديقا، وكنت لك الغريبة بداهة و على الرغم مني أما وأختا ورفيقة وصديقة "[29]. ثم تتوالى بينهما الخطابات، فيكتب لها جبران ويؤكد لها من جهة أخرى، غربتها وغربته قائلا: "أسألك ما إذا كنت تريدين أن يبقى –هذا العالم- غريبا عنك؟ و أسألك ما إذا كنت لا تريدين محادثته بلغة أنت أعرف الناس بها؟ أو لست أنت أيضا غريبة عن هذا العالم ؟ ألست بالحقيقة غريبة عن محيطك و عن كلما في محيطك من الأغراض والمنازع والمآتي والمرامي؟ أخبريني، أخبريني يا "مي" هل في هذا العالم كثيرون يفهمون لغة نفسك؟ كم مرة يا ترى لقيت من يسمعك وأنت ساكتة ويفهمك وأنت ساكنة "[30].

وقد يكون هذا التوجع هو الذى دفعها للشعور بالاضطهاد (Paranoia) والسقوط في درك اليأس، "إذ يظن المصاب بحسن نية الآخرين، فيشك في كل ما يصدر منهم وعنهم فيتخذ موقف المضطهد اتجاههم، لذا يحاول الدفاع عن نفسه"[31]. فشعورها بأنها مضطهدة نابع من كونها تعاني غربة نفسية فظيعة أوصلتها إلى أقصى حالات الضياع والانهيار.

ثالثا: الغربة الفكرية:

نشأت مي زيادة بين مركزين من مراكز التأثير في الثقافة العربية الحديثة (بيروت والقاهرة) وعاصرت كبار المبدعين أمثال: شبلي شميل (1850-1917)، وأنطوان الجميل(1887-1948)، ولطفي السيد (1872-1963)، وطه حسين (1889-1973)، وغيرهم.

توزعت مي زيادة بين أصولها الشرقية وثقافتها الغربية بحكم نشأتها في دير الراهبات "وقد ترسب في أعماقها أثر ما تعلمته"[32]، ثم اطلاعها الواسع على الثقافة العربية في مرحلة تالية. فالاغتراب الفكري عند "مي زيادة" لم يكن وليد لحظة انفعال، أو ضعف ولكنه اغتراب فكري منبعه مثاليتها المفرطة، ونفسيتها الشفافة المرهفة.

ونتيجة لذلك فقد ظنها البعض من النقاد أنها "غربية النزعة" لمجرد أنها تلقنت أولى دروسها عن الغرب وكانت مهتمة بدراسة اللغات الأجنبية، غير أنها ولكثرة ما استغرقت مطالعاتها واتصالاتها بأفكار الغرب وأدبهم ، أصبحت تعيش بالفكر في عالم، وبالواقع في عالم أخر، ولم تستطع التوفيق بين الواقعين: أن تنقل فكرها إلى الواقع، ولا أن تنقل واقعها إلى ما يطمئن إليه فكرها[33].

وقد اتهمها مرة يعقوب صروف (1852-1927) بأنها تفكر بلغة أوروبية قبلما تعبر عن رأيها، فردت عليه برسالة جاء فيها: "لقد قلت أني أفكر بلغة أوروبية، قبلما أعبر عن رأيي بالعربية ، قلت ذلك، ولم تسمح لي بالاحتجاج وهل دفاعي يجدي نفعا إذا استشهدت الإخلاص أني ساعة أكتب العربية أفكر بها، ولا أفكر بلغة أجنبية إلا عرضا، أعترف بأن معرفتي اللغات الأخرى قبل العربية جعلتني أشبه بتلك المرأة التي لم تخرج في حياتها من قرية"[34].

وخير ما نستشهد به عن غربة "مي" الفكرية هو ما فنّده الأستاذ خليل مطران (1872-1949) في كلمة له في مجلة المقتطف[35] بعد قراءته لديوانها المكتوب باللغة الفرنسية أزهار حلم (Fleurs de rêve) 1911 ، والذي نشرته باسمها المستعار"إيزيس كوبيا"،

يقول: "بعد مطالعة هذا الكتاب تمثل لدى قفص من الذهب يتحرك في داخله ويتنقل بين أسلاكه، عصفور صغير ملوّن الريش، يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص، وينطلق منه إلى الفضاء الواسع والجو المطلق الفسيح لأنه لا يطيق الاحتباس ولا يقدر على أن يكون سجينا في مكان ضائق بأمانيه في الحياة"(36). هذه هي "مي زيادة "إنها تريد التحليق بفكرها دونما قيود تقف في وجهها وتحول دون تحقيق ما ترغب فيه، فهي مثل عصفور يحب التغريد على الدوام، ميال إلى الحرية، لأنه خلق حرا ولا يقو على العيش بدون ذلك

خاتمة:

إن أدب مي زيادة يحتاج إلى أكثر من احتفاء باعتبارها نصا مفتوحا متعدد المداخل ولأنها خزان كبير من العواطف الإنسانية النبيلة التي انعكست على إنتاجها الأدبي كقيمة تداولية وتاريخية، فروحها الشفاف وإنسانيتها النبيلة المرهفة وشخصيتها الاستثنائية قد ألهمت كثيرا من الأدباء والمبدعين الشباب وحتى الشيوخ معاني صادقة عبرت فيها عن غربة الروح قبل الجسد، وغربة الأديب في عالم المادة الزائف وقسوة الناس وإيذائهم لبعضهم البعض رغم أن الحياة ميدان فسيح يستطيع الإنسان فيه أن يظهر مواهبه وأن يحقق طموحاته ويؤصل كيانه دون أن يؤذي الآخرين الضعفاء أو المنبوذين المضطهدين.

حاولت مي زيادة أن تسجل تاريخ المرأة العربية المثقفة في بداية النهضة والتنوير وأن تقرأ موضوع الغربة قراءة واعية تسجل فيه انتصار الذات العربية على الإحباط النفسي والفشل ومحاولات الانتحار.

لقد تجلت في مدونة مي زيادة الإبداعية الحافلة والمثيرة عدة انكسارات منها غربة الروح، الشعور بالاضطهاد والتصدع النفسي، والدونية في مجتمع بطرياركي يقدس الذكورة و يمجدها، في عالم مليء بالتوترات والتصدعات يسيطر عليه الفزع والاضطراب والبحث عن الاستقرار في الزمن المفقود.

الإحالات:

1- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1 ، 1979 ، ص 186.

2- إميل يعقوب: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1 ، 1987 ، ص 240.

3- مي زيادة: المؤلفات الكاملة، جمع وتحقيق: سلمى حفار الكزبري، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1982 ، ص 365.

4- وداد سكاكيني: مي زيادة في حياتها وأثارها، دار المعارف، القاهرة،1969 ، ص 17.

5- مي زيادة : المؤلفات الكاملة، جمع وتحقيق: سلمى حفار الكزبري، ص 647.

6- سلمى الحفار الكزبري: مي زيادة وأعلام عصرها، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1982 ، ص 192.

7- المرجع نفسه،ص ن.

8- المرجع نفسه،ص 226.

9- نعيم الحمصي: الرائد في الأدب العربي، دار المأمون للتراث، دمشق، (د.ت)، ص779.

10- وداد سكاكيني: مي زيادة في حياتها وأثارها، ص 18.

11- المرجع نفسه ، ص 50.

12- مي زيادة : المؤلفات الكاملة، جمع وتحقيق: سلمى حفار الكزبري، ج 2، ص 121.

13- المرجع نفسه، ص 312.

14- سيمون عواد: من أدب مي زيادة، دار عواد، بيروت،1981، ص 24.

15- مي زيادة : المؤلفات الكاملة، جمع وتحقيق: سلمى حفار الكزبري، ص 599.

16- المرجع نفسه ، ص 647.

17- عبد السلام هاشم حافظ : مي والرافعي، وزارة الثقافة، مصر(د.ت) ، ص 149.

18- عبد اللطيف شرارة : مي زيادة ، دار صادر، بيروت ،1965، ص 18.

19- سامي الدروبي: علم النفس والأدب ، دار المعارف، مصر، ص 263.

20- فيصل محمد خير الزراد: الأمراض العصابية والذهانية والاضطرابات السلوكية ، دار القلم ، بيروت ، ط1، 1989، ص 21.

21- نبيلوبي مري: العبقرية ، ترجمة محمد عبد الواحد محمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، 208، أبريل ، 1996، ص 297.

22- وداد سكاكيني: مي زيادة في حياتها وأثارها، ص 32 .

23- المرجع نفسه ، ص 129.

24- مي زيادة : المؤلفات الكاملة، جمع وتحقيق: سلمى حفار الكزبري، ص 358.

25- وداد سكاكيني: مي زيادة في حياتها وأثارها، ص 150.

26- سلمى الحفار الكزبري وسهيل بديع بشروني: الشعلة الزرقاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق،1997، ص 94.

27- عامر العقاد: لمحات من حياة العقاد المجهولة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1968، ص 230.

28- طاهر الطناحي: أطياف من حياة مي، دار الهلال، القاهرة،1974،ص 130.

29- تيسير مخناش: مي زيادة الناقدة، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة باجي مختار، عنابة، 1999، ص 64.

30- أحمد حسن الزيات: وحي الرسالة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، ط4، 1958، ص 313.

31- ماجد هابيل: بناة الأجيال، مجلة تصدر عن نقابة المعلمين، سوريا، السنة الثالثة، العدد التاسع، كانون الثاني، 1994، ص 93.

32- خالد محمد غازي: مي زيادة، سيرة حياتها وأدبها وأوراق لم تنشر، وكالة الصحافة العربية ناشرون، مصر،2015، ص 152.

33- وداد سكاكيني: مي زيادة في حياتها وأثارها، ص 73.

34- محمود عبد الغني حسن: حياة مي، عالم الكتب، القاهرة،1964، ص 9.

35- خليل مطران: مجلة المقتطف، العدد الأول ، المجلد المائة، بتاريخ1 يناير 1942، ص 63.

36- طاهر الطناحي: أطياف من حياة مي، ص 68 .

تاريخ الإيداع 2016/03/20 تاريخ القبول:2016/06/03